2 المسلمون والغزو الأوروبي لإمبراطورية التوكولور

انتشر الدين الإسلامي في غرب أفريقيا عندما ظهرت طلائع المرابطين البدو الذين جاءوا من المغرب الأقصى ودخلوا عن طريق سهل المحيط الأطلسي واتجهوا جنوبا حتى حوض السنغال، ولكنهم توقفوا عند منطقة الشجيرات القصيرة، ولم يتوسع الإسلام جنوبا بسبب الغابة الاستوائية، وبسبب مقاومة أهالي البلاد من الوثنيين وخصوصا شعب البمبارا[1].

ولعبت مدن شمال أفريقيا دورا كبيرا في نشر الدين الإسلامي في غرب القارة، وتكونت ممالك ومدن إسلامية عريقة في الغرب حيث نجد دولة غانا، ومالي، وصنغي، ومدن تمبكت، وكانوا، وجاو، وصارت هذه المدن مراكز الإشعاع للحضارة الإسلامية حيث تشرّب الناس تلك الحضارة، وأقاموا دويلات إسلامية، ولعبت الطرق الصوفية أيضا دورا رياديا في نشر الإسلام، وتصحيح العقيدة، بعد أن مارس السكان بعض العادات الوثنية التي اختلطت بالمثل والقيم الإسلامية، وصار من الضروري ظهور رجال الإصلاح والتجديد الذين

ذهبوا إلى مكة، ثم عادوا إلى بلادهم ليعلنوا الجهاد ضد الوثنيين، وليؤسسوا دولا إسلامية تتخذ من الشريعة الغراء منهاجا وسبيلا للحكم. وتصادف قيام تلك الحركات الإصلاحية في غرب أفريقيا مع بدايات التوسع والتكالب الأوروبي على مناطق القارة الأفريقية[2]، فصار جهاد زعماءالمسلمين في جبهتين: جبهة ضد الوثنيين وأخرى ضد الأوروبيين. وهذا ما أعطى جهاد المسلمين صفة الحروب الصليبية، والتي سجل فيها زعماء الإسلام بطولات فائقة، ووقفوا سدا منيعا ضد محاولات التوسع الأوروبي، وكبدوا العدو خسائر فوق طاقاته، ونجحوا في إرساء أسس العقيدة الإسلامية على أساس صحيح، ومازالت شعوب غرب أفريقيا الإسلامية تدين إلى زعماء هذه الحركات الإصلاحية. ومن أبرز الزعماء الذين ساهموا بشكل فعّال في مقاومة التوسع الأوروبي ذلك المجاهد التيجاني الحاج عمر الفوني التكروري. وسوف نعرض لسيرة هذا الزعيم ونشأته والإمبراطورية التي سعى لتكوينها على أنقاض الإمارات الوثنية في حوض السنغال، ثم لبداية الصراع مع الفرنسيين من ناحية، ومع القوى المحلية من جهة أخرى، وأخيرا تتبع جهاده ومقاومة أبنائه للتوسع الفرنسي حتى سقوط دولة التوكولور.

أولا: نشأة الحاج عمر التكروري:

ولد الحاج عمر بن سعيد في قرية حلوار بالقرب من بودور (Podor) على الحدود السنغالية الموريتانية في عام 1795، وكان الحاج عمر هو الابن الرابع للشيخ سعيد الذي ينتمي إلى التوردوب الذين قاوموا الوثنية في هذه المنطقة، وبعد ذلك لعبت هذه الجماعات دورا في مقاومة التوسع الأوروبي بعد أن اعتنقت الإسلام وقامت بنشره في المنطقة، وصار أتباع هذه الجماعة من أكثر الناس حماسا لنشر الدين الإسلامي[1].

درس الحاج عمر اللغة العربية، وعلوم الدين تحت إشراف والده، فحفظ القرآن الكريم، ودرس صحيح مسلم وصحيح البخاري، وعندما بلغ سن الخامسة عشرة من عمره ترك حلوار لكي يتلقى العلم وعلوم الدين تحت إشراف العلماء المحليين في فوتاتورو، وعلى مشايخ الطرق الصوفية وخصوصا الطريقة التيجانية[1].

وفي عام 1814 ترك الحاج عمر منطقة فوتاتورو واتجه إلى مدينة ساتينا

(Satina) في فوتاجالون التي تبعد مئات الأميال عن مدينة حلوار. وفي هذه المدينة بدأ يكسب لقمة العيش من خلال تدريس القرآن الكريم والسنة الشريفة لأطفال القرى والمدن المجاورة. وظل هناك حتى بلغ من العمر واحدا وثلاثين عاما.

وفي عام 1826 قام الحاج عمر برحلة ثقافية ودينية طويلة بدأها بالذهاب إلى بيت الله الحرام لأداء فريضة الحج مع أخيه علي، وفي إحدى رحلاته إلى البلاد المقدسة التقى بالشيخ عبد الكريم النقيل أحد علماء التيجانية من فوتاجالون حيث درس على يديه مبادئ هذه الطريقة، وذهب الحاج معه إلى مدينة «حمد الله» العاصمة الجديدة لدولة ماسينا. وفي هذه المدينة توطدت علاقات الحاج عمر مع سكان ماسينا الذين عهدوا إليه بنشر مبادئ الدين الإسلامي لأبناء المدينة ولأبناء الأسرة الحاكمة[2].

وانتقل الحاج عمر من ماسينا إلى دولة الخلافة الإسلامية في سوكوتو حيث قضى سبعة أشهر غادر بعدها المنطقة إلى فزان، والسودان المصري في ذلك الوقت، وأخيرا وصل إلى مكة المكرمة عام 1828، حيث قابل هناك الشيخ محمد الغالي أحد رفاق الشيخ أحمد التيجاني وخليفته في الحجاز. وفي الحجاز اكتسب الحاج عمر شعبية كبيرة جعلته في صراع مع العلماء هناك، الأمر الذي جعله يعجل بالعودة من الحجاز[1].

وفي رحلة العودة زار الحاج عمر العديد من الدول، واستقر في بعضها حينا من الوقت، ومر بالقاهرة، وبرنو وقضى عدة سنوات هناك، ثم استقر في دولة سوكوتو. ويقول الحاج عمر: إنه جاء إلى بلاد الهوصا والتقى بالخليفة محمد بلو، وحاول التوفيق بين المسلمين في سوكوتو، وكانم، وإمبراطورية البرنو، لكنه كان على عجل للتوجه إلى غرب أفريقيا لتحقيق أهدافه في بناء دولة إسلامية[2].

لقد لقي الحاج عمر معاملة حسنة من الخليفة محمد بلو الذي زوجه إحدى بناته وتدعى فاطمة، وفي سوكوتو التقى الحاج بالرحالة الإنجليزي هوج كلابرتون الذي أشاد بذكاء هذا العالم من فوتاتورو[3].

وسافر الحاج عمر إلى القاهرة ومنها إلى بلاد الحجاز ثانية حيث التقى في هذه المرة بالشيخ محمد الغالي ثانية، وظل معه ثلاث سنوات أنهى فيها تعليمه، وحصل منه على الإجازة(الشهادة) التي تمكنه من تقلد

منصب شيخ الطريقة، وبالتالي يصير من حقه إرشاد الناس مبادئ الطريقة التيجانية إلى كل من يرغب في الانضمام إليها من المسلمين[4].

وفي طريق عودته إلى السودان زار القاهرة حيث مكث بعض الوقت في الجامع الأزهر، أكمل خلالها تفسير القرآن الكريم، ورحل مع أخيه علي وزوجته فاطمة، وابنته الصغرى إلى غرب أفريقيا، وبدلا من أن يتجه من فزان، وكاتسيا، ثم سوكوتو، سلك الحاج عمر طريقا صعبا وعر المسالك إلى برنو. وفي طريقه مات أخوه علي وواصل الباقون الرحلة حتى وصلوا إلى برنو، لكن لقاء الشيخ الأمين الكانيمي كان غير ودي بسبب علاقات الحاج عمر مع خليفة المسلمين في سوكوتو، واتجه الحاج إلى بلاد الهوصا وحاول نشر مبادئ التيجانية، ازدادت علاقات الحاج عمر وثوقا بالخليفة محمد بلو، وظل الحاج هناك حتى وفاة الخليفة في عام 1837.

استفاد الحاج عمر كثيرا من إقامته في دولة سوكوتو حيث تعلم طرائق الحكم، بل شارك في جيوش الخلافة ضد الوثنيين، وانتصر في بعض المعارك، فكانت هذه فترة إعداد وتحضير للدور الكبير الذي يعد نفسه له في المستقبل، وحقق الحاج بعض الثروات من جراء الاشتراك في الحروب والحصول على قدر من الأسلاب والأسلحة والرقيق.

ويروي أحد الرحالة الأوروبيين أن الحاج عمر أحضر معه وهو في سوكوتو عددا كبيرا من المصاحف والكتب الدينية، وبعض الرقيق الذين باعهم في الطريق، وحقق من جراء ذلك مكاسب كثيرة، وجمع ثروات كبيرة كانت ذخيرة له في بناء دولته فيما بعد[1].

بعد وفاة الخليفة محمد بلو عام 1837 غادر الحاج عمر سوكوتو في العام التالي، وتعتبر هذه الفترة من أغنى فترات الإنتاج الأدبي في حياة الحاج عمر، حيث عبر فيها عن مشاركته سياسيا وعسكريا في عمله الكبير» الرماح»، ولقد التقى الحاج عمر في هذه الفترة مع الشيخ أحمد البكائي وهو أحد أحفاد سيدي المختار الكنتي الذي كان له الفضل الكبير في نشر الطريقة القادرية في السودان الغربي في أواخر القرن الثامن عشر، ولقد رأى الشيخ البكائي في الحاج عمرشخصا طموحا يريد أن يضم الدويلات الإسلامية الموجودة في المنطقة، ولذا أخذ منه موقفا عدائيا حتى نهاية حياة الحاج عمر كما سنوضحه فيما بعد[1]. بقى الحاج عمر تسعة أشهر

في منطقة ماسينا، لكن بسبب محاولاته نشر الطريقة التيجانية حدث نوع من العداء تجاه الحاج، بل جرت محاولات لاغتيال الحاج عمر والقضاء على نفوذ الطريقة التيجانية، فاضطر الحاج عمر إلى عبور نهر النيجر وهو في حالة سيئة، حيث إن ملك البمبارا الوثني ويدعى فاما تيفلو (Fama Tyfilu) قام بسجنه في سيجو، لكن هذا الملك الوثني أطلق سراحه، وأعطاه أموالا وعامله معاملة حسنة[2].

ومن سيجو انتقل الحاج عمر عبر نهر النيجر إلى كانجابا (Kangaba) حيث مكث ثلاثة أشهر في تلك المدينة التجارية لمسلمي الماندي في القرنين السابع عشر والثامن عشر[3].

ورغم أن حاكم كانجابا شيد له منزلا في مدينته إلا أن الحاج غادر المدينة إلى كان كان، حيث قضى الحاج عامين نشر خلالها الطريقة التيجانية، وساعده الحاكم ألفا محمود، في هذا المجال، بإرسال كتيبة عسكرية وقفت بجانبه[4]. كان من الواضح أن الحاج عمر، وهو يقيم في مدينة كان كان خلال عامي 1838 و 1839، يفكر في مكان دائم يصلح كمركز يستقر فيه، ويكون قاعدة لنشر مبادئ الطريقة التيجانية كمقدمة لبدء الجهاد. وفي عام 1840 تحرك الحاج عمر إلى مدينة كومبيا (Koumbiya) التي تقع في الشمال الغربي من فوتاجالون، وتوقف في هذه المدينة فترة من الزمان، لكنه انتقل قي النهاية إلى مدينة دياجونكو (Diagonko) بالقرب من منابع نهر بافنج (Bafing) وهنا وجد الحاج عمر المكان الذي كان يبحث عنه طويلا، فاستقر في دياجونكو مدة من الزمان قاربت على السنوات الأربع (1840- 1844) حيث انتهى من تأليف كتابه «الرماح»، وحيث خصص جزءا للحديث عن رغبته في تقلد منصب الخليفة بعد أن شاهد رؤيا في المنام بهذا الشأن[1].

وعندما اتجه الحاج إلى مدينة سانت لويس القريبة من مصب نهر السنغال واجه موجة من العداء المكشوف من السلطات المحلية خصوصا في مناطق قبائل الولوف التي نظرت إليه باعتباره رجلا يسعى لبناء مملكة سياسية، بل حاولوا اغتياله.

لكن الحاج عمر عبر النهر إلى فوتاتورو، حيث مسقط رأسه في حلوار، والتي غادرها منذ عشرين عاما. واتجه أخيرا إلى منطقة باكل على نهر

السنغال[2]

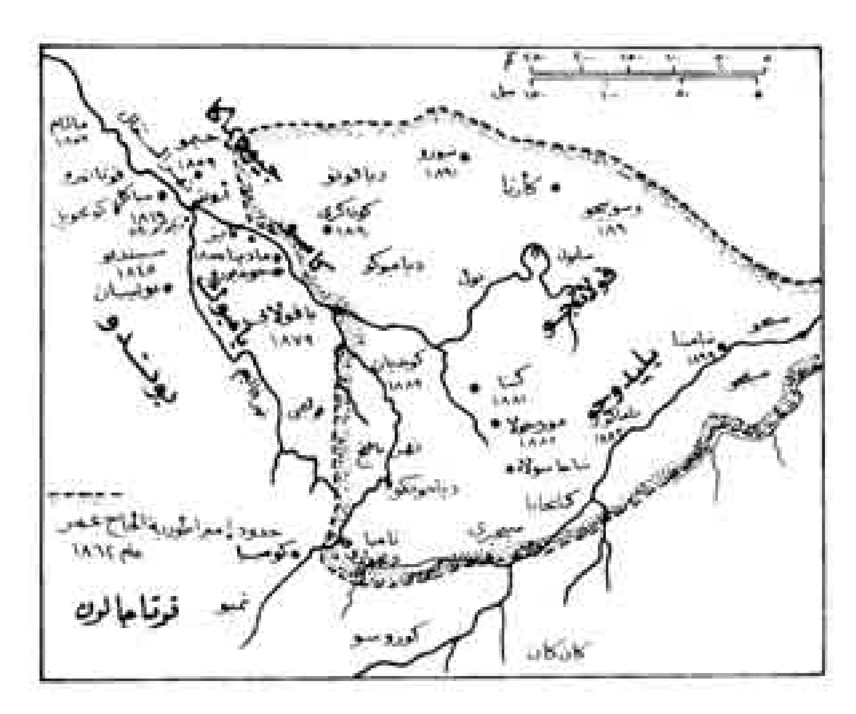
والتقى الحاج عمر بالضابط الفرنسي هيكورت (Hecquart) في المركز الفرنسي الجديد الذي احتلته قوات سانت لويس، وناقش الحاج عمر مع الفرنسيين ومع السلطات المحلية خطة جهاده في المستقبل، وأخيرا عاد ثانية إلى مدينة دياجونكو بعد أن انضم إليه عدد كبير من الأتباع. وكان الاستقبال العظيم الذي لقيه الحاج عمر خلال هذه الأسفار قد أعطاه أهمية كبرى، وأغراه بالقيام بثورة ضد الفرنسيين بين السكان الذين يعيشون على ضفاف نهر السنغال[3] وفي عام 1849 رحل الحاج عمر إلى دنجوراي (Dinguiray) التي صارت المقر الروحي والعسكري. وكانت الإمامة في فوتاجالون هي التي أجبرت الحاج عمر على الهجرة من دياجوكو إلى دنجوراي فاعتبرها الحاج شبيهة بهجرة الرسول الكريم عليه السلام من مكة إلى المدينة. واعتبر الشيخ أهل دياجوكو بمثابة المهاجرين، وأهل دنجوراي بمثابة الأنصار. ومن هنا بدأ إعلان الجهاد الذي استمر حتى وفاته في عام 1864[1].

وقبل الحديث عن المعارك التي خاضها الحاج عمر ضد الوثنيين وضد الفرنسيين نجد أنفسنا) أمام سؤال يلح علينا قبل أن نخوض في تفاصيل الجهاد والحرب وهو:

كيف كوّن الحاج عمر جيشه وهو دائم التنقل من مكان لآخر؟ لقد استطاع الحاج عمر أثناء إقامته في سوكوتو، ومن خلال المعارك التي خاضها مع الخليفة محمد بلو أن يكتسب الكثير من الأعوان المخلصين، كما أن الأسلاب التي حصل عليها من الحروب كانت تضم الرقيق الذين حررهم وضمّهم إلى جانبه.

وكان الحاج عمر يقسم قواته إلى ثلاث مجموعات: الطلاب الذين يناصرونه في نشر الطريقة، ثم الصوفيون من الرقيق وغيرهم من المسلمين الأكثر حماسا للجهاد، وأخيرا جماعات التوبورو (Tuburu) وهم الذين يتم تجنيدهم بالقوة، وكان الشيخ يكتسب أعوانا جددا في كل المناطق التي مر بها أو قام بغزوها. وبلغت قواته حوالي 12000 رجل حسب قول أحد المؤرخين بعد استيلائه على مدينة تامبا (Tamba)[2]، وزاد هذا العدد إلى 15000 جندي أثناء حصار مادينا عام 1857، لكنه انخفض إلى 7000 جندي عند

غزو ماسينا بسبب المجاعة، لكنه عاد وارتفع إلى 30000 جندي عام 1861. وفي عام 1852 أعلن الحاج عمر الجهاد ضد الوثنيين في السودان الغربي، واستطاع في خلال عشر سنوات أن يسيطر على كل السودان الغربي من حدود مدينة تمبكت حتى حدود السنغال الفرنسية، ورغم أنه اعتبر نفسه مصلحا دينيا، وأعلن الزهد في الأمور الدنيوية المؤقتة إلا أنه كان مستعداً لتحقيق آماله من خلال الطرائق السياسية والعسكرية. واعتبر الحاج عمر أن رسالته المقدسة هي تنقية الإسلام في السودان الغربي من كل ما علق به من شوائب، ووضع حد للوثنية، وتطبيق الشريعة الإسلامية. ومن هنا وضع نفسه على رأس دولة إسلامية. واتبع أسلوب العنف في تحويل الناس الوثنيين إلى الشريعة الإسلامية. وقام ببناء المساجد ونشر المدارس القرآنية في كل أرجاء المنطقة التي امتدت إليهما حركته الإصلاحية.[1].



شكل رقم (6)

وكان حماس جيشه واضحا في تطبيق مبادئ الشريعة، وكان هذا الحماس سببا في ازدياد عدد الأتباع الذين انتشروا على نطاق واسع يدافعون عن الدين، ويعيدون للإسلام مجده في هذه المنطقة لدرجة أن حاكم السنغال الفرنسي عبّر عن دهشته لهذا الحماس الديني واندفاع المسلمين بكل شجاعة وقوة نحو نيران الفرنسيين سعيا في الاستشهاد في سبيل الله والوطن[2].

وفي عام 1854 سيطر الحاج عمر على معظم أعالي نهر السنغال، ووصل نفوذه إلى باكل، وكان يأمل في الحصول على أسلحة من الفرنسيين، لكن خطر توسعاته في الغرب غيّر العلاقات، فتحولت إلى عداء مفتوح بين الحاج عمر والفرنسيين[3]، ذلك أن قوات الحاج عمر بعد أن اكتسحت كاسو وباماكو اخترقت طريقها إلى كارتا، وبالتالي تكون قد اقتربت من المركز الفرنسي الجديد في باكل على نهر السنغال، وحاول الحاج عمر الحصول على أسلحة من الفرنسيين لكنهم وجدوا فيه خصما عنيدا فرفضوا إعطاءه الأسلحة، أو تقديم المساعدات الفنية لجيشه[4].

وكان الحاج عمر يرغب في تحسين علاقاته مع الفرنسيين مقابل الحصول على الأسلحة والذخيرة، وكان على استعداد للموافقة على تسهيل تجارة الفرنسيين عبر إمبراطوريته حتى لا يهاجموه من المؤخرة إذا ما انشغل في حروب مع كأرتا[1].

وقال الحاج عمر في لقاء مع بعض المسؤولين الفرنسيين: إنه يرغب في السلام ويكره الظلم، وإن على الفرنسيين دفع الجزية إليه حتى يمكنهم المتاجرة في أمان، وإنه بعد أن يصبح إماما لفوتاتورو فسوف ينظم الدولة، وسوف تسود علاقات الود بالفرنسيين[2].

وفي هذه الفترة لم يهتم الفرنسيون باقتراحات الحاج عمر لأنهم لا يرغبون في دفع الجزية لأي حاكم محلي مسلم، وكان رد الفرنسيين الغامض على طلب الأسلحة سببا في فتور العلاقات بين الحاج عمر والفرنسيين، وقام الحاج عمر بمقاطعة المرور في حوض نهر السنغال الأعلى، بل حاول الحاج التحرك ضد المركز الفرنسي في مادينا (Madina) فكان هذا بداية مرحلة من الصراع بين الحاج عمر والقوات الفرنسية.

ثانيا: بداية الاحتكاك مع الفرنسيين.

في أوائل عام 1854 بدأت علاقات الحاج عمر بالفرنسيين تأخذ شكل العداء الواضح والصريح، ذلك لأن الحاج يرغب في الحصول على أسلحة فرنسية، فكتب إلى الحاكم الفرنسي بروتت (Protet) بهذا الخصوص، لكن الرد الفرنسي الغامض، مع ما صاحبه من مساندة أعدائه من الماندي، جعل الحاج عمر يقوم بمصادرة بضائع الفرنسيين على طول النهر، ويعلن عن غضبه لأفعال المسيحيين، وذلك في رسالة وجهها إلى الحاكم الفرنسي في سانت لويس. وكان الفرنسيون قد خططوا على أساس تقوية مكانتهم في وادي السنغال الأعلى على حساب إمبراطورية الحاج عمر، ولذا لم يكن مناسبا أو معقولا أن يزودوه بالسلاح الذي يمكن أن يستخدم ضدهم. ولذا فقد كانت سياستهم عدم دعم قوات الحاج عمر، وتقوية مراكزهم وحامياتهم في باكل، وسنوديبو (Senudebu) في أواخر عام 1855 حتى بدأت السياسة التوسعية للقضاء على هذا الزعيم المسلم.

وضع الفرنسيون خطتهم على أساس مساندة سامبالا (Sambala) أحد أفراد الأسرة الحاكمة في كاسو، ضد الحاج عمر، مقابل سماح سامبالا للفرنسيين ببناء قلعة جديدة في مادينا (Madina)، ووقع القائد الفرنسي فيدهرب معاهدة مع عدد من رؤساء الماندي، كما شجع العبيد وأتباع الحاج عمر على تركه والتخلي عنه، والانضمام إلى البمبارا في سيجو(1).

ولكي يكمل فيدهرب شبكة المحالفات ضد الحاج عمر بحث فيدهرب عن حليف له في بوندو-تلك المملكة التي تقع على طول الشاطئ الأيسر لنهر السنغال الأعلى على مفترق طرق الشمال مع الجنوب والشرق مع الغرب. ووجد فيدهرب هذا الحليف في شخصية بوكار (Bokar) بن ساندا (Sanda) الذي مات عام 1852، وكان بوكار قد انضم إلى حملات الحاج عمر لكنه تأثر بعد مصرع عدد كبير من أقاربه من العائلة الملكية في كأرتا.

واستطاع الهرب وعاد إلى بوندو حيث تحالف مع الفرنسيين بقصد إعادة سيادته إلى مملكته بعيدا عن الحاج عمر. وفي نهاية عام 1857 تحول بوكار إلى عدو للحاج عمر، وجسد تعاونه في اتفاقية مع الفرنسيين، وصار بوكار ساندا ركيزة استراتيجية للقوات الفرنسية في السنغال الأعلى حتى عام 1885 ,(2)

وواجه الحاج عمر مقاومة عنيفة في كارتا، وتحت الضغط الشديد من أتباعه تحدى الحاج الفرنسيين علانية لأول مرة في أبريل عام 1857 عندما هاجم مادينا رمز السياسة الفرنسية العدوانية ضده حيث اجتاحت قوات الجهاد المدينة، وطردت سامبالا، ولم يفك الحاج عمر الحصار إلا بعد ارتفاع مياه نهر السنغال، فغادر بقواته إلى كونديان (Koundian) حيث بنى قلعة جديدة، وواصل الحاج عمر الحرب. ففي عام 1859 هاجمت قوات المجاهدين قلعة ماتام (Matam)، وأحس الفرنسيون أنهم يواجهون حربا جديدة مثل ما حدث في الجزائر، ورغم أن الحاج عمر كان يعارض المواجهة العسكرية مع الفرنسيين إلا أنه اضطر إلى ذلك اضطرارا بعد أن انتهى من غزو منطقة كارتا التي قاومت الحاج عمر فترة طويلة. وكانت حملات الحاج عمر إلى فوتا تهدف في الحقيقة إلى الحصول على عدد من الأتباع والأعوان لتدعيم جيشه قبل القيام بسلسلة أخرى من الحملات ضد الفرنسيين. ولم يكن هدفه الرئيس مهاجمة الفرنسيين. ويتضح ذلك عندما وجه حملاته بعيدا عن مناطق نفوذ الفرنسيين، وحاول عدم الاحتكاك بهم، والتوجه إلى ممالك أعالي النيجر.

وكان الحاج عمر قد أرسل إلى المسلمين في سانت لويس يطلب منهم شن حرب مقدسة ضد حكامهم الوثنيين والمسيحيين، ووعدهم بمحاربة الفرنسيين حتى يطلبوا السلام منه وقال: «إن الحرب ضد الوثنيين يجب أن تستمر حتى يوافقوا على دفع الجزية».[1] وكانت هذه الدعاية التي نشرها الحاج عمر على طول نهر السنغال ضد الفرنسيين من العوامل التي جعلت القائد الفرنسي فيدهرب يخشى قوة الحاج عمر، ويفكر في دراسة الموقف جيدا على نهر السنغال، بل ذهب شخصيا في إحدى السفن إلى باكل لمعرفة الأخبار على الطبيعة، وأدرك فيدهرب أن الحاج عمر يرغب في أن يدفع الفرنسيون ضرائب له بالإضافة إلى منعهم من إقامة مراكز عسكرية على طول شواطئ النهر. وأكد فيدهرب في مراسلاته المستمرة إلى باريس على أن الحاج عمر ينوي شن هجوم شامل على الفرنسيين أسوة بالأمير عبد القادر الجزائري، وفي فبراير عام 1856 كتب إلى وزير المستعمرات والبحرية قائلا: «إن الحاج عمر ينظم لثورة عامة ضدنا»[1].

كل هذه الأمور كانت سببا في أن يتحفز الفرنسيون لاتخاذ إجراءات

عسكرية لمواجهة خطط قائد المسلمين، وترتب على ذلك قيام الفرنسيين ببناء قلعة في مادينا في مقاطعة كاسو (Khasso)، ووقع فيدهرب معاهدة الصلح والتجارة مع سامبالا ملك كاسو[2].

وبعد أن ثبّت فيدهرب مركز الفرنسيين على طول نهر السنغال. بدأ يسعى لعقد معاهدة سلام مع الحاج عمر، فأصدر قبل سفره إلى باريس تعليمات إلى نائبه موريل بشأن التفاوض مع الحاج عمر على مشروع الاعتراف به كملك لكارتا مقابل أن يحد من نشاطه في المنطقة[3].

ويتضح من هذه المحاولات أن الفرنسيين يحاولون التعامل مع الحاج عمر مثل ما يتعاملون مع الأمير عبد القادر الجزائري بعد توقيع اتفاق تافنا (Tafna) معه في عام 1837، ويعني هذا تدعيم موقفهم قبل الدخول في توسعات كبرى. وبعد عودة فيدهرب إلى السنغال في نهاية عام 1856 بدأ الحاج عمر كفاحه المباشر مع الفرنسيين بمهاجمة مركز مادينا وهو الأمر الذي ضيع فرص السلام بين الطرفين. وكان الحاج عمر يرغب بعد غزو كارتا في أن يضم وطنه في فوتاتورو إلى المناطق التي سيطر عليها خصوصا وأن سكان المنطقة كانوا من المتعصبين لقضيته، وكانوا يكرهون الحكم المسيحي الذي يعتبر بمثابة الشوكة في صدورهم. ذلك لأن الفرنسيين يحاولون تدمير القرى التي يسكنها أعوان الحاج عمر[1].

وفي الشهور الأولى من عام 1857 بدأ الحاج عمر هجومه على قلعة مادينا واحتل إحدى المناطق في كاسو وتدعي تومورو (Tomoro) دون قتال واقترب من النهر، وفي 14 أبريل هاجم سابوسيري (Sabousire) عاصمة مقاطعة لوجو (Logo) واتخذها مقرا لعملياته العسكرية ضد الفرنسيين، وفي العشرين من أبريل وصل جيش المسلمين إلى منطقة مادينا حيث بدأ الحصار. وكان الجيش يسير في ثلاثة طوابير بلغ عددها 15000 مقاتل، وكانت حامية المدينة تضم أربعة وستين رجلا بقيادة بول هول (Paul Holle) الذي استطاع إرسال أحد رجاله إلى باكل ليخبر القيادة الفرنسية عن الوضع في مادينا. وفعلا صدرت الأوامر لإحدى السفن الفرنسية بالتوجه إلى مكان العمليات العسكرية في مادينا، لكن تحطمت هذه السفينة على إحدى الصخور. ومنع الحاج عمر رجالها من الوصول إلى القلعة المحاصرة وظلوا في حطام السفينة.[2]

وفي أوائل يونيه قرر فيدهرب أن يقود بنفسه حملة لإنقاذ حامية مادينا، ووصل بقواته إلى حطام السفينة المحاصرة لكن جنودها كانوا قد ماتوا من الحمى. وفي الوقت نفسه كان مصير بول هول وحامية مادينا يتوقف على وصول حملة الإنقاذ. ووصل فيدهرب فعلا إلى المنطقة في 18 يوليه، أي بعد حوالي ثلاثة اشهر من بدء الحصار، فوجد عددا من سكان المدينة قد ماتوا جوعا بسبب رفض بول هول الاستسلام لقوات الحاج عمر، ونجح فيدهرب في إنقاذ مادينا. ذلك النجاح الذي كان امتحانا لقوات الحاج عمر حيث توقف نشاطه في المنطقة لمدة عامين، بل تحرك من سابوسيري، ولم يعد لهذه الأماكن إلا في عام 1859 عندما هاجم المركز الفرنسي في ماتام (Matam) الذي كان أيضا تحت قيادة بول هود الذي أصاب قوات الحاج بخسارة فادحة حيث نقص عدد الجيش إلى النصف، أي من 15000 جندي إلى 7000 جندي[1].

بعد هذه النكسة التي حلت بقوات الموحدين انسحب الحاج عمر إلى جيومو (Guemou) التي تبعد حوالي أربعين كيلو مترا عن باكل، وبنى حصنا هناك، وبدأ يعرقل تجارة الفرنسيين على طول نهر السنغال. ولهذا قرر فيدهرب تدمير حصن جيومو، وعهد بهذه المهمة إلى بعثة استكشافية بقيادة الضابط فارون (Faron). وفي 25 أكتوبر هاجم فارون الحصن واستولى عليه بعد أن أصيب بعدة جروح، لكن الحاج عمر كان قد انسحب منه قبل وصول البعثة الفرنسية متوجها إلى نيورو، وقتل ابن أخي الحاج عمر ودمر الحصن تماما[2].

بعد هذه الأحداث أدرك الحاج عمر أنه لا يستطيع مواجهة الأوروبيين في هذه المنطقة، واتخذ قراره بإنشاء دولة متكاملة في الشرق بعيدا عن مجال النفوذ الفرنسي، وفي الوقت نفسه بدأ يسعى في عملية تحسين العلاقات مع الفرنسيين حتى يتفرغ لدولته الجديدة، وحتى يأمن خطرهم فترة من الزمان يكون قد أعاد بناء جيشه، وكوّن دولته في منطقة النيجر.

وفي مايو 1860 أرسل تيرنو موسى (Tierno Musa) إلى الفرنسيين لكي يبحث معهم رغبة الحاج عمر في عقد اتفاق سلام. ونقل موسى رسالة الحاج عن طريق قائد منطقة باكل ويدعى كورنو (Cornu) إلى فيدهرب الذي قام على الفور بالاتصال بكل الرؤساء المحليين من البمبارا في باكل

ومادينا لكي يدينوا بالطاعة والولاء للفرنسيين[3].

وفي 21 أغسطس (آب! عام 1860 ناقش المجلس الإداري للسنغال طلب الحاج عمر لعقد الصلح والسلام والشروط التي ينوي فيدهرب فرضها عليه. وناقش فيدهرب ستة بنود لهذه المعاهدة التي كان يركز فيها على رسم خط حدود بين المنطقة المزمع وضعها تحت سيطرة الحاج عمر، ومنطقة السيادة الفرنسية والتي تمتد من بافنج (Bafing) حتى مادينا، لكن هذه المعاهدة لم يكتب لها أن ترى النور لأن الحاج عمر رفض هذه الشروط القاسية التي تضمنتها البنود المقترحة، وغادر منطقة كارتا للبحث عن منطقة أخرى في النيجر، ولم ينه كفاحه ضد الفرنسيين، بل كثف من دعايته ضدهم، وكلّف رجاله بعرقلة التجارة الفرنسية إلى باكل.

وإزاء كل هذا النشاط قام حاكم السنغال الفرنسي بإرسال خطابات الحاج عمر إلى السكان والتي تطالب الأهالي بالثورة ضد الفرنسيين[1]، وطالب حاكم السنغال بإرسال تعزيزات إليه لخطورة الموقف، وأنه لابد من استعراض القوة. وكان الفرنسيون يتابعون الموقف عن كثب خصوصا بعد تحول الحاج عمر نحو الشرق، والمصاعب التي كانت تواجه تحركاته، والتي انتهت باستشهاده في إحدى هذه المعارك في عام 1864 وهو يناضل من أجل بناء دولة إسلامية يستطيع بها الوقوف في وجه الغزو الأوروبي.

ثالثا: غزو النيجر ونهاية كفاح الحاج عمر:

شعر الحاج عمر أن النضال ضد الفرنسيين لن يتوقف، وأن طمع الفرنسيين لا حدود له، وأن محاولات عقد الصلح معه ما هي إلا مرحلة مؤقتة في خطط الفرنسيين لابتلاع ممتلكاته وضمها للسيطرة الفرنسية، ولذا فإنه قرر ترك هذه المنطقة والاتجاه إلى منطقة النيجر على أمل التحالف مع زعماء المسلمين هناك في محاولة لتوحيد صفوف المجاهدين ضد عدو أوروبي يطمع في السيطرة على بلادهم. كانت هذه هي استراتيجية الحاج عمر في مرحلة سدت فيها كل السبل أمام إيقاف التوسع الفرنسي، وهي استراتيجية تدل على بصيرة قوية، وعقلية عسكرية تواجه هذه التحديات الأوروبية. لكن أفكار الحاج عمر لم تجد من يفهمها في المناطق الجديدة التي أحست أنه جاء لغزوها والقضاء عليها فتحالفت ضده، وتآمرت

عليه في وقت هو في أشد الحاجة إلى مؤازرتها والوقوف معه ضد العدو المشترك. ولذا ضاعت جهود هذا المناضل الإسلامي في صراعات جانبية مع هؤلاء الزعماء المسلمين، واضطر إلى الدخول في حروب ضدهم.

كان الحاج عمر قد أرسل إلى ملك سيجو في عام 1856 يخبره برغبته في الإبقاء على علاقات الود معه. ورحب الملك برسالة الحاج عمر لكن أخاه اتهمه بالخيانة، وبأنه يسعى لتسليم سيجو إلى الفولاني فقام بقتله وصار حاكما بدلا منه[1].

وعندما بدأ الحاج عمر زحفه نحو الشرق واجه جيش سيجو بقيادة ابن الملك ويدعى تاتا (Tata)، والتقى الجيشان عند ويتالا (Witala)، ونجح الحاج عمر في هزيمة البمبارا، واستولى على سان ساندنج (Sansanding) حيث مكث بها خمسة أشهر قبل أن يواصل الرحلة إلى سيجو (Segu).

وفي تلك الفترة أرسل الملك المسلم أحمدو شيخو بن أحمدو لوبو (1853-1862) حاكم ماسينا تعزيزات عسكرية بقيادة عمه بالوبو (Balobbo) لمساعدة إمبراطور سيجو ضد أي هجوم من قوات الحاج عمر. فكان هذا العمل مبررا لكي يفكر الحاج في غزو ماسينا. وقابل الحاج عمر قوات سيجو ومادينا في يناير 1861 في تيو (Tio) وتمكن من إنزال الهزائم بهم. وأجبر بالوبو على الانسحاب، وهزم البمبارا في مارس 1861، وهرب ملكها، إلى مدينة حمد الله عاصمة ماسينا. ودخل الحاج عمر مدينة سيجو وأشعل فيها النيران، وقتل عددا من سكانها الوثنيين[1].

فكر الحاج عمر بعد ذلك في غزو ماسينا التي ساعدت سيجو، وتحدي ملكها المسلم لقوات الحاج عمر، وبالتالي دخل الحاج في صراع مع قوات مسلمة تحت إمرة حاكم مسلم يدافع عن العقيدة ضد الوثنيين منذ أيام جده الشيخ أحمدو لوبو مؤسس مملكة ماسينا. ونظرا لتعقد الموقف وحقنا لدماء المسلمين فقد كتب أحمدو شيخو الثالث خمس رسائل إلى الحاج عمر، وكلها رسائل قصيرة، نظم الحاج عمر محتوياتها في منظومة برر فيها حربه مع أحمدو الشيخ الذي تحالف مع الوثنيين ضده. وفند الحاج عمر مزاعم أحمدو بأنه ناضل ضد الوثنيين وأنه حول المنطقة إلى الإسلام، وأن حربه لهم تعني خلق الانقسام داخل المجتمع المسلم. وأجاب الحاج عمر بأن السكان رغم دخولهم الإسلام إلا أنهم ما زالوا يمارسون العادات الوثنية،

وأن تعاونهم مع الوثنيين في سيجو ضده أمر لا يقره الشرع ولذا تجب محاربتهم.

واضطر الحاكم أحمدو شيخو أن يبحث عن حليف له ضد أطماع الحاج عمر، ووجد هذا في شخصية أحمد الكنتي المعروف بالبكائي رئيس الطريقة البكائية في تمبكت، والذي كان ينتظر هذه الفرصة ضد الحاج عمر منذ زمن طويل، فأخذ يحث أحمدو على حرب الحاج عمر حتى لا يترك له سيجو، وأنه على استعداد لمساعدته.

واتهم أحمد البكائي الحاج عمر بأنه رجل عنيد يريد فقط بناء إمبراطورية وأنه رجل دجال. وأمام هذا النقد العنيف وإصرار أحمدو شيخو على قتال الحاج عمر بدأ الهجوم على ماسينا في العاشر من أبريل عام 1862 بعد أن عين ابنه الأكبر ويدعى أحمدو تال حاكما على سيجو وأعطاه لقب خليفة التيجانية. وقبل أن يواصل الحاج عمر معاركه الأخيرة في منطقة ماسينا ركز على تدعيم قوته العسكرية، وازدياد الثقة في أتباعه، واتساع حدود سلطاته حيث بلغت قواته قبل غزو ماسينا حوالي 30000 جندي. وتحرك جيش الحاج عمر نحو ماسينا حيث كان جيش أحمدو شيخو ضعف هذا العدد، ودارت المعركة في غابة قرب أحد سهول نهر باني (Bani). ورغم تفوق قوات ماسينا في البداية إلا أن المعركة انتهت لصالح الحاج عمر حيث هزم ملك ماسينا الذي قبض عليه وأعدمه. وعين الحاج عمر ابنه أحمدو أميرا على ماسينا لكن بالوبو وأخاه عبد السلام تآمرا على الحاج فقبض عليهما إلا أنهما هربا من حمد الله عاصمة ماسينا.

وكانت هذه هي الفرصة التي ينتظرها أحمد البكائي حيث ساعد كلاً من بالوبو وعبد السلام في تأسيس حلف جديد ضد الحاج عمر، وهبت ماسينا في ثورة عارمة ضد الحاج في مايو عام 1863. واشترك في هذا التمرد البمبارا والفولاني المسلمون، ولم يعد للحاج عمر أي حلفاء في المنطقة، وكان عليه الاعتماد على الجيش الذي أحضره من سيجو. وبعد أن قلّت قوات الحاج عمر تحضن في حمد الله التي كانت تعج بالسكان مع قلة الموارد، في الوقت الذي تحرك فيه أهالي تمبكت بقيادة أحمد البكائي لحصار المدينة التي شيد الحاج عمر سورا ضخما حولها. وحاصر المدينة تحالف القادرين في ماسينا وفرقة البكائي من تمبكت ومعه بالوبو. واستمر

الحصار حوالي تسعة أشهر. وطوال هذه الفترة كان ابن الحاج عمر غائبا في سيجو يحاول القضاء على تمرد هناك. وأثناء الحصار أرسل الحاج عمر ابن أخته أحمد التيجاني في 21 يناير 1864 ليطلب مساعدات من الفولاني في الجبال القريبة، لكنه لم يتمكن من العودة إلى المدينة المحاصرة.

وعندما أدرك الحاج عمر أن مؤونة الطعام لا تكفي إلا لفترة قليلة، وأنه فقد الأمل في أي مساعدات خارجية، قرر اتباع الطريق الخطر الذي لا سبيل غيره ألا وهو محاولة تحطيم واختراق الجيش المحاصر للمدينة. وفي 7 فبراير 1864 نجح الحاج عمر في تنفيذ خطته، لكن بعض عناصر الجيش المحاصر من أتباع أحمد البكائي قامت بتعقبه في منطقة مجاورة لمدينة حمد الله. وهاجموه هو ورفاقه الذين أنهكهم الجوع والعطش، وقاوم رجاله من الفجر حتى غروب الشمس. وتخلص منهم حتى وصل إلى قرية جورو (Ghoro). وهناك تعقبهم الأعداء. وكان ذلك في أول شهر رمضان، وحاصروهم في هذه القرية لمدة أربعة أيام. وعندما جاءت نهاية الحاج تحرك من هذا المكان حيث استشهد في يوم الجمعة الموافق 3 رمضان 1280 هـ (12 فبراير 1864) [1].

وهكذا استشهد هذا المجاهد الإسلامي وهو يناضل من أجل بناء دولته الإسلامية عن عمر ناهز السبعين عاما، حاول خلالها مقاومة التوسع الفرنسي بكل ما أوتي من قوة، وترك لأبنائه مسؤولية هذا العبء الكبير.

رابعا: المقاومة الإسلامية بعد وفاة الحاج عمر:

لقد أحدث استشهاد الحاج عمر مشكلات كثيرة للإمبراطورية الإسلامية، ذلك لأن وحدتها تقوم على أساس قيادته الدينية والسياسية، وإصراره على النضال والجهاد اللذين غرسهما في نفوس أتباعه. وكان الحاج قد أحس بالخطر الذي يهدد إمبراطوريته من الفرنسيين في الغرب، ومن الممالك الوثنية والإسلامية في الشرق، ولذا فإنه عين ابنه أحمدو نائبا عنه في سيجو، وطلب من إخوته القسم له بالولاء والطاعة. لكن بعد استشهاد الحاج عمر بدأت المشكلات بين أبنائه في وقت كانت الإمبراطورية في أمس الحاجة إلى التكالب والترابط ضد الفرنسيين، وضد القبائل الثائرة في سيجو، وهذا ما أعطى جهاد الحاج عمر وأبنائه لونا جديدا من النضال

ضد الاستعمار والوثنيين.

وبعد استشهاد الحاج عمر جمع ابن أخته أحمد التيجاني بقايا الجيش الإسلامي في ماسينا، واستغل المنافسة بين أحمد البكائي وبالوبو، ابن حاكم ماسينا، واستطاع أن يجعل من نفسه حاكما للدولة. ودعم أحمد التيجاني دولته وقوى مركزه، وصارت أحوال دولته أكثر ثباتا من الجزء الذي يحكمه الشيخ أحمدو تال بن الشيخ عمر في سيجو، وظل محتفظا باستقلاله حتى وفاته عام 1887. وخلفه أحد أحفاد الحاج عمر لكنه لم يعمر في الحكم طويلا حيث خلفه أحمد المدني مونيرو الذي حكم حتى عام 1890. وأثناء حكم المدني في ماسينا صارت باندياجارا (Bandiagara) من أهم مراكز التعليم الإسلامي. أما منطقة كارتا فقد آلت إلى حكم أحد عبيد الحاج عمر ويدعى مصطفى، وقد حكمها بشكل مستقل منذ أن بدأ الحاج عمر غزواته في ماسينا عام 1860، أما الشيخ أحمد تال فقد ادعى أنه سيد على كل المنطقة التي كان والده قد سيطر عليها. وفي 11 أكتوبر 1868 غيّر لقب الخليفة الذي كان يحمله من قبل إلى لقب أمير المؤمنين، وذلك في موكب حضره الشيخ أحمد بن محمد الغالي خليفة التيجاني في الحجاز، والذي قضى معه الحاج عمر ثلاث سنوات أثناء رحلة الحج عام 1827[1].

لكن حدث الخلاف بين أبناء الحاج عمر الذين اعتبروا أن أحمدو أقل منهم شأنا، وحاولوا إقصاءه عن الحكم في عام 1872، وأدّى هذا العمل إلى التفكك يبن قواد الجيش، وصار من الصعب تهدئة هذه الأمور التي تدعو إلى الانفصال، بالإضافة إلى أعمال التمرد التي كانت أكبر تهديد للاستقرار في الإمبراطورية، وظلت أعمال التمرد هذه في معظم أجزاء الدولة حتى أواخر السبعينات من القرن التاسع عشر، ونجح أحمدو في إنقاذ الإمبراطورية من هذه التجزئة، كما استطاع القضاء على مؤامرات إخوانه الثائرين، بل سحق المتورطين منهم في الاضطرابات، وشدد الرقابة على الحكام المحليين، وأشرك معهم مستشارين من قبله، وصار المستشارون مسؤولين أمامه، كما طلب من الحكام زيارته في سيجو مرة كل عام حتى يضمن ولاءهم. وهكذا استطاع أحمدو القضاء على أعمال التمرد الذي أوشك على إحداث تصدع في تلك الإمبراطورية في وقت كانت تحتاج فيه

إلى تضافر جهود المخلصين للوقوف أمام أعداء الدين، وبدأ أحمدو يعتمد على المخلصين له، وعلى الذين اعتنقوا الدين الإسلامي حديثا وأخلصوا للدعوة المحمدية، وكان هذا سببا في غضب تلاميذه القدامى الذين يشكلون الجهاز الإداري للإمبراطورية[1].

هذه هي أحوال الإمبراطورية الإسلامية بعد وفاة الحاج عمر، وقبل أن يواصل أبناؤه الجهاد ضد الاستعمار الفرنسي الذي يتربص بالمسلمين. وكان الفرنسيون منذ عام 1860 يركّزون على تطوير تجارتهم مع السودان الغربي. ولذا فإنهم حاولوا عدم اتباع سياسة عدائية مع القوى المجاورة حتى لا تتأثر مواردهم، وفي الوقت نفسه أراد التوكولور وقف العداء حتى يتمكنوا من تركيز حملاتهم ضد المقاومة في كارتا، ولنشر الجهاد في سيجو وماسينا. وفي هذه الظروف كان السلام بين الفرنسيين والتوكولور أمرا ضروريا[2].

وحاول الشيخ أحمدو الإبقاء على روح الحرب المقدسة التي أرسى دعائمها في السودان الغربي الشيخ عثمان بن فودي، والحاج عمر الفوتي، لكن العلاقات مع الفرنسيين كانت تشكل عقبة كبرى أمامه لأنه أدرك أخطار السماح لهم بالإقامة في مناطق نفوذه، لكنه في ذات الوقت كان في حاجة إلى الأسلحة الفرنسية الحديثة حتى يواصل حملاته ضد البمبارا الوثنيين. من هنا كانت مصالح الفرنسيين وأحمدو تتطلب فتح صفحة جديدة في العلاقات بين الطرفين. تلك العلاقات التي كانت قد بدأت في أواخر عام 1863 عندما أرسل الفرنسيون الكابتن ميج (Mage) إلى سيجو ليؤكد للشيخ أحمدو رغبة الفرنسيين في العيش في سلام، وعقد معاهدة مع أحمدو. وكان الشيخ قد ترك ميج منتظرا في سيجو لمدة قاربت العامين قبل أن يوافق على توقيع المعاهدة، وكانت حجته في هذا التأخير هي الرغبة في استشارة الحاج عمر الذي كان محاصرا في ماسينا. لكن بعد استشهاد الحاج عمر وقع الشيخ أحمدو المعاهدة مع ميج في 26 فبراير 1866[1].

ورغم التناقضات بين النصين الفرنسي والعربي إلا أن المعاهدة كانت واضحة حول النقطة الرئيسة التي جاء ميج من أجلها، والتي كانت ترتكز حول حق الفرنسيين في إقامة مراكز لهم على طول نهر النيجر، وهو الأمر

الذي يلقى معارضة من التوكولور لأنه يعني الاحتكار التجاري للفرنسيين في هذه المراكز. لكن هذه المعاهدة بين ميج وأحمدو خدمت مصالح الطرفين، ذلك لأن الفرنسيين كانوا يحلمون بموضع قدم على النيجر يمكنهم من استكشافات جديدة في المنطقة، كما أن الشيخ أحمدو وعد بحماية الفرنسيين وتجارتهم على شرط أخذ 10٪ من الرسوم على السلع التي يتم الاتجار فيها داخل الإمبراطورية، ولقد أكد ميج في تقريره الخاص على أنه كان من الأفضل للفرنسيين إقامة علاقات طيبة مع إمبراطورية التوكولوز، وأشار إلى إمكانية انتهاج سياسة بديلة بعد ذلك للسيطرة على الإمبراطورية.

ورغم كل هذا فإن الاتفاقية لم تحقق الهدف الرئيس منها، ولم تحرز تحسنا كبيرا في العلاقات الموجودة بين الطرفين، لكنها ظلت لعدة سنوات أساس العلاقات بين الفرنسيين وإمبراطورية التوكولور. ولم تفكر فرنسا في السياسة البديلة التي أشار إليها ميج إلا بعد عام 1866، ذلك لأن فيدهرب قد غادر السنغال إلى الجزائر، ولأن فرنسا أرادت الحفاظ على مصالحها التجارية خصوصا بعد أن سمح أحمدو للقوافل التجارية بالانتقال حرة في مناطق نفوذه. واستمرت علاقات الود قائمة حيث إنه في أوائل عام 1871 أرسل حاكم السنغال إلى وزير البحرية والمستعمرات أن أحمدو الموجود في نيورو يحتفظ بعلاقات ودية بقائد مركز مادينا (Madina)، وأنه يسمح للقوافل التجارية بالانتقال حرة في بلاده[1].

استفاد أحمدو من فترة السلام هذه فقام بتدعيم نفوذه حيث استطاع القضاء على تمرد اخوته الثائرين عليه، كما أنه أخضع البمبارا عندما عاد إلى سيجو في عام 1873، وفي صيف عام 1878 كتب بييردي ليل (Biere DeL'Isle) يفيد بأن أحمدو قد نجح في فرض سيطرته الكاملة على المنطقة غرب وجنوب النيجر حتى نهر السنغال، وأضاف أن نفوذه قد امتد إلى أبواب سانت لويس[2].

وطوال السبعينات واصل الشيخ أحمدو احتفاظه بعلاقات طيبة بالفرنسيين رغم أن اخوته في كارتا وديامبوكو رفضوا أوامره، وقاموا بعدة اضطرابات ضد الفرنسيين في منطقة كاسو، وحثوا المسلمين القاطنين على نهر السنغال على الهجرة إلى منطقة النيجر[3]. وحاول إخوة أحمدو تحويل تجارة مادينا ومنع الفرنسيين من إقامة مراكز فيها. وفي عام 1877

قام القائد الفرنسي باسيرو (Basiru) بغزو حصن سابوسير في منطقة لوجو (Lego) في محاولة لفك اتحاد كاسو الذي كان قد كونه فيدهرب بعد إنقاذ قلعة مادينا عام 1857. وكان هذا الغزو الفرنسي يعنى تعقيد الأمور وبداية سوء العلاقات خصوصا عندما طلب الشيخ أحمدو شراء اثني عشر مدفعا، لكن الحاكم الفرنسي بييردى ليل انتهج سياسة فيدهرب السابقة بتدعيم أعدائه وحلفاء فرنسا ضد المسلمين. وكانت فرنسا قد خططت لبناء خط سكك حديدية بين السنغال والنيجر[4].

وخلال الأشهر الأخيرة من عام 1877 بدأت السلطات الفرنسية في السنغال تدرك بداية فتور العلاقات بالشيخ أحمدو الذي أخذ يتجه إلى طلب دعم من البريطانيين في مستعمرة جمبيا، حيث بدأ السيد كوبر (Cooper) القائم بالأعمال الإداري في المستعمرة البريطانية في جمبيا يتصل بالزعماء الوطنيين على نهر السنغال والنيجر لكي يعلنوا الولاء للبريطانيين، وخشي الفرنسيون من هذه الاتصالات التي يمكن أن تؤثر في التجارة البريطانية في المنطقة، ولذا بدأ بييردى ليل انتهاج السياسة الفرنسية التوسعية التي خطط لها وزير المستعمرات والبحرية في باريس، وهي السياسة التي قامت على الخوف من البريطانيين، وأجبرت فرنسا على سياسة الغزو لإمبراطورية التوكولور[1]. ففي 13 مايو 1876 أرسل السيد كوبر خطابا إلى ملك بوندو يقترح فيه فتح باب التجارة مع الداخل عن طريق سيجو وتمبكت، «ومن عاصمتكم أستطيع المرور إلى كاسو، وأزور ملك كمبالا، ومن هناك عن طريق جيوماكورو وماركويا وحتى سيجو لأزور الشيخ أحمدو تال»[2].

لكن هذا الخطاب الذي وصل إلى السلطات الفرنسية في السنغال في عام 1877 لا أساس له في مراسلات الوثائق البريطانية في لندن، ولا يوجد ما يدل على هذه الادعاءات الفرنسية التي اتخذت من هذا الخطاب مبررا لكي يثبّت الفرنسيون أقدامهم في منطقة النيجر، وبالتالي الدخول في صراع مع الشيخ أحمدو قبل أن يتحالف مع البريطانيين. فلقد أرسل حاكم السنغال إلى باريس يطلب الاستفادة من العلاقات الطيبة بينهم وبين الشيخ أحمدو، وأن يدعموا علاقاتهم معه عن طريق عقد معاهدة جديدة[3].

كانت السياسة الفرنسية الجديدة نحو إمبراطورية التوكولور تحت قيادة

بييردى ليل حاكم السنغال تهدف إلى الضم الكامل للإمبراطورية داخل النظام الاستعماري الفرنسي. ولتنفيذ هذا المشروع قامت فرنسا بإنشاء القيادة العليا للسنغال الأعلى في 6 من سبتمبر 1880، وكانت هذه القيادة مستقلة تماما عن حكومة السنغال ومسؤولة عن التوسع الفرنسي في داخل أفريقيا، واتخذت من مادينا مقرا لها، وتم تعيين الكولونيل برونس دسبوردس (Bronis Desbordes) ممثلا لها.

وفي ذلك الوقت تبين وجود اتجاهين فرنسيين متعارضين تجاه إمبراطورية التوكولور. فعلى حين طالب دسبوردس بالتقدم السريع نحو غزو سيجو، كانت حكومة السنغال تفضل الإبقاء على علاقات الود بالشيخ أحمدو وإقامة علاقات معه، والتفاوض من أجل معاهدة جديدة. وفعلا بدأت حكومة السنغال في مساعيها السلمية فأرسلت بعثة في صيف عام 1880 بقيادة جوزيف جالينى إلى سيجو. وكان جالينى يجرى اتصالات مع رؤساء البمبارا في المناطق التي يمر عليها مؤكدا لهم الحماية الفرنسية، ويشجعهم على مقاومة سلطة الشيخ أحمدو. ولما علم الشيخ أحمدو بتلك المحاولات الفرنسية، وقبل أن يقترب جالينى من نانجو على النيجر في يونيه 1880، أرسل إليه خطابا يطلب منه التوقف هناك وعدم الذهاب إلى سيجو[1].

ظل جالينى في نانجو من أغسطس 1880 حتى مارس 1881، ويقول جالينى إن سر هذا العداء من جانب أحمدو يرجع إلى البريطانيين الذين حاولوا عن طريق وكلائهم في سيراليون وجمبيا إفادة الشيخ أحمدو بأن بعثة جالينى ليست سوى مقدمة للغزو النهائي لإمبراطورية التوكولور من جانب الفرنسيين[2].

ويستطرد جالينى فيقول: إن سر حجزه في نانجو إنما يرجع إلى الأسباب التالية:

أولا: عدم وفاء الفرنسيين بالتزاماتهم في معاهدة 1866، وعدم تقديم مساعدات عسكرية له.

ثانيا: مساعدة الفرنسيين لبعض المنشقين على سلطة الشيخ أحمدو، وتقديم العون لكل المتمردين عليه.

ثالثا: غزو منطقة لوجو وبناء مركز فرنسي في منطقة بافولابى

(Bafoulabe).

وأخيرا تصرفات بعثة جالينى بين البمبارا ومحاولاتها إثارة القبائل ضده. ورغم كل هذا فقد وقع الشيخ أحمدو المعاهدة في 3 نوفمبر 1880، والتي نصت على وضع مناطق الشيخ أحمدو تحت الحماية الفرنسية، كما نصت على أن فرنسا هي الدولة الوحيدة التي يسمح لها بالإبحار في النهر وتشييد مراكز عليه. وفى عام 1882 وقّع جالينى معاهدة أخرى مع أحمدو أحكمت القبضة الفرنسية على إمبراطورية سيجو. وفى مقابل هذه الامتيازات التي منحها أحمدو للتجار الفرنسيين تعهدت فرنسا بعدم غزو المناطق التابعة له. لكن حاكم السنغال الفرنسي لم يعتمد هذه المعاهدة بالرغم من البعثة التي أرسلها الشيخ أحمدو إلى سانت لوشر في أكتوبر عام 1881[1].

وفى أوائل أكتوبر 1882 قرر وزير المستعمرات الفرنسي بأن تكون حملة القيادة العليا للسنغال هي بسط النفوذ الفرنسي على النيجر.

ولاحظ الشيخ أحمدو هذا التوسع التدريجي في مناطق نفوذه بعد توقيع معاهدة 1880 فأرسل بعثة إلى سانت لويس لكي يناقش مع الفرنسيين عملية إنشاء مراكز فرنسية في مناطق نفوذه، والتهديد بإلغاء الاتفاقية إذا أصر الفرنسيون على الاستمرار في بافولابى وكيتا (Kita). كما أرسل الشيخ أحمدو خطابا إلى رئيس الجمهورية الفرنسية احتج فيه على السلوك العنيف للمقيمين الفرنسيين في سيجو، وطالب باحترام قواعد السلام بين الطرفين[1].

لكن لم تمنع الحواجز الدبلوماسية الفرنسيين من التقدم نحو إمبراطورية التوكولور، ولم يحترم جالينى نفسه شروط الاتفاق، ولم تقدم فرنسا الأسلحة إلى الشيخ أحمدو، بل تغيرت السياسة الفرنسية بعد إنشاء القيادة العسكرية للسنغال الأعلى، والتي تعني أن يواجه أحمدو قوادا عسكريين من البحرية الفرنسية في المستقبل، ولأنه منذ البداية كان هدف القيادة العسكرية الاحتلال العسكري لوادي السنغال والنيجر، وفعلا قامت هذه القوات باحتلال باماكو في عام 1883. وإزاء هذا الموقف العدواني طلب الشيخ أحمدو من الفرنسيين الجلاء عن بافولابي وكيتا كرمز لحسن النية.[2]

وفى تلك الفترة كانت إمبراطورية التوكولور مقسمة إلى أربعة أقسام:

يحكم الشيخ أحمدو منطقة كارتا من العاصمة نيورو، ويحكم ابنه مادانى منطقة سيجو، بينما حكم ابن عمه التيجاني منطقة ماسينا، كما حكم أخوه أجوبو (Aguibou) منطقة دنجوراي.[3]

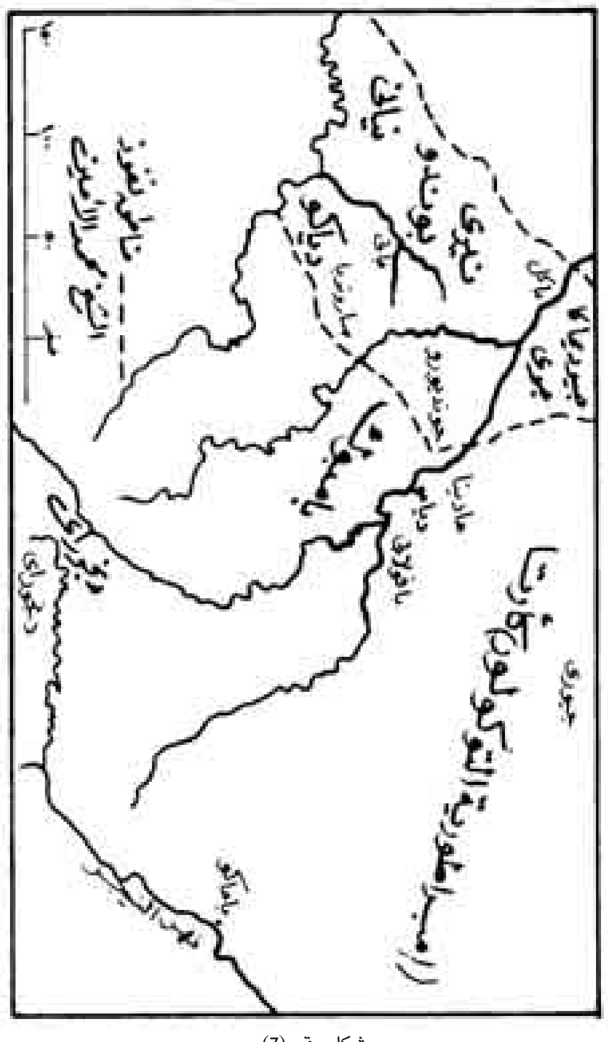
ولما احتل الفرنسيون مدينة باماكو لم يعارض أحمدو رغم أن هذا الاحتلال تهديد لمدينته وعاصمته، ولم يحاول التعرض للقوات المسلحة المارة على سيجو، ولعل السر في هذا التقاعس هو الضعف الذي انتاب الإمبراطورية بسبب الانقسامات الداخلية، وبالتالي حقق الفرنسيون عملياتهم في التوسع بشكل سريع، وتدهورت العلاقات بين التوكولور والفرنسيين خلال عامي 1885 و 1886 خصوصا بعد مؤتمر برلين 1884 الذي أعطى شروطا للاحتلال الفعلي لأي منطقة قبل إعلان الادعاء عليها مع إخطار الدول الأخرى الموقعة على ميثاق المؤتمر.[1]

وبناء على قرارات مؤتمر برلين، توسعت القوات الفرنسية في المنطقة ودخلت في صراع مع قواد الجهاد الإسلامي: أمثال ساموري توري، والشيخ محمد الأمين في أعالي السنغال، وقام الفرنسيون بحملات تأديبية ضد منطقة جيوديماكا (Guidimaka) التي اعتبرها الشيخ أحمدو جزءا من إمبراطوريته. وكان رد المسلمين عنيفا على هذه الخطوة حيث هاجمت قوات الشيخ أحمدو قوافل الفرنسيين المتجهة إلى مادينا، وأدرك القائد الفرنسي فرى أن حربا شاملة لابدّ من أن تحدث لا محالة.[2]

وأدرك فري أنه من الأفضل إقامة علاقات ودية مع التوكولور لأن صداقة الشيخ أحمدو سوف تسهل على الفرنسيين مهمتهم في القضاء على جهاد الشيخ محمد الأمين، وتساعد الفرنسيين على بسط نفوذهم على وادي النيجر والسنغال، وجاء جالينى بعد فرى ليؤكد على توقيع اتفاق جديد يؤكد عدم غزو مناطق الشيخ أحمدو مقابل إنشاء محمية فرنسية على إمبراطورية التوكولور. وقبل الشيخ أحمدو هذه الشروط، ووقع على المعاهدة في مايو 1887، واستمرت العلاقات الودية بين الطرفين طوال هذا العام وعام 1888.

ووجد جالينى أنه من الأجدى إبقاء أحمدو في نيورو فقط، ولهذا بدأ مساعداته العسكرية للبمبارا، وكان يؤمن بأن الشيخ أحمدو سوف يتحول تدريجيا إلى حليف للفرنسيين، لكن خابت ظنون الفرنسيين، ولم يقبل

أحمدو أن يكون حليفا للفرنسيين الذين يسعون للقضاء على إمبراطوريته التي تحدد مصيرها عام 1888 بعد القضاء على كل من الزعيم المسلم ساموري توري، ومحمد الأمين، وصار القضاء على هذه الإمبراطورية الإسلامية أمرا محتما[3].



شكل رقم (7)

خامسا: القضاء على إمبراطورية التوكولور:

عندما جاء لويس أرشينار (Archinard) خليفة لجالينى لم يوافق على فكرة التعاون مع الشيخ أحمدو، ففي فبراير عام 1889 قام أرشينار بالهجوم على القلعة التوكولورية المعزولة في كونديان (Koundian) دون أوامر أو أسباب تتصل بالموقف في السودان الغربي، وكانت هذه العملية أصعب مما تصوره هذا القائد الفرنسي حيث قاوم أهل القلعة بكل بسالة وإقدام، وصمدوا أمام مدافع أرشينار التي استمرت ثماني ساعات تقصف القلعة قبل الاستيلاء عليها، فلقد حارب الناس من منزل لآخر، ومن شارع إلى شارع، وظلوا يقاومون حتى نفدت قوة المدينة الباسلة، واستسلمت في النهاية للفرنسيين بعد أن كبدت قوات أرشينار خسائر فادحة.

وكان الاستيلاء على حصن كونديان أول الحملات في سبيل تحطيم إمبراطورية التوكولور، وكان هدف أرشينار الثاني هو تحطيم مدينة سيجو، ولهذا الغرض سافر إلى باريس على أمل الحصول على موافقة الإدارة الاستعمارية في باريس على حملة لغزو عاصمة التوكولور، ونجح فعلا في الحصول على الموافقة في عام 1890. وكان أرشينار قد تعلل بأن ساموري يسعى لعقد حلف مع الشيخ أحمدو لمهاجمة الفرنسيين، وأن الشيخ أحمدو قد أرسل إليه خطابا يدعو إلى الحرب وإعلان انتهاء العلاقات الودية بين الفرنسيين والمسلمين[1].

وما أن حصل أرشينار على الموافقة حتى غزا سيجو ودخلها دون صعوبة في 6 أبريل 1890، وكان ماداني بن الشيخ أحمدو حاكما على سيجو خلال غياب والده. أرسل أرشينار بعثة لأحمدو يعرض عليه السماح له بالعيش في دنجوراى، لكن الشيخ أحمدو رفض الطلب وذهب إلى ماسينا مع أخيه الأصغر ويدعى أجيبو الذي صار حاكما تحت الحماية الفرنسية، لكن دخول أرشينار سيجو لم يحقق غرضه من الوصول إلى نيورو لمساعدة حلفائه من البمبارا. وجرب الشيخ أحمدو دبلوماسية الحل السلمي، لكن هذه الدبلوماسية أصبحت غير مجدية مع عدو يرغب في السيطرة الكاملة على الإمبراطورية الإسلامية، وأحس أحمدو أن السلاح هو الفيصل الوحيد، وأن استخدام القوة هو أمضى سلاح للوقوف أمام هذا الغزو الاستعماري لأراضي المسلمين في أفريقيا.

كان أحمدو يرغب في الهجوم على مراكز الفرنسيين في كونديان، لكنه فشل في تجنيد العدد الكافي لهذه الحملة الكبيرة. وانتظر حتى جمع عددا من المجاهدين وقام بمهاجمة الخط الحديدي في تالاري (Talari)، وفقد الفرنسيون في هذه الاشتباكات مالا يقل عن ثلاثة وأربعين قتيلا، و12ه جريحا، ولما علم الشيخ أحمدو بأن أرشينار يخطط لغزو نيورو (Nioro) بدأ بالاستعداد لمواجهة هذا الهجوم، وقسم قوات جيشه إلى أربعة أقسام؟ وأرسل قائد التوكولور حوالي خمسة آلاف رجل لمنع تقدم الفرنسيين من الجنوب، كما قام ابن الشيخ ويدعى مادانى بحراسة المناطق الشرقية ضد أي هجوم من قبائل البمبارا في بليدوجو. أما ملك الولوف الذي فقد عرشه فقد بقى مع السلطان أحمدو في نيورو[1].

وما أن بدأت العمليات العسكرية ضد نيورو حتى استطاع أرشينار في خلال أسبوع، وبالتحديد في 30 ديسمبر 1890، هزيمة جيش التوكولور في المستنقعات قرب نيورو، ودخل أرشينار المدينة في الأول من يناير 1891. لكن التوكولور لم يستسلموا لهذه الهزيمة، بل حاولوا بعد يومين الهجوم على الفرنسيين قرب قرية يورى (Youri). ورغم المقاومة الباسلة التي أبداها المجاهدون إلا أنهم فشلوا في التغلب على الجيش الفرنسي الذي فاقهم عددا وعتادا، وراح ضحية هذه المعركة حوالي ثلاثة آلاف شخص، واضطر الشيخ أحمدو إلى الاتجاه شرقا مع أتباعه إلى ماسينا.

التقط الشيخ أحمدو أنفاسه في ماسينا التي كانت تحت حكم أحد إخوة أحمدو ويدعى مونيرو (Muniro)، واستطاع أحمدو الإطاحة به، لكن أيام الشيخ كانت محدودة ومعدودة، ففي عام 1892 عاد الأعداء إلى بلاد السودان الغربي بعد أن أكملوا استعدادهم، وعملوا على استتباب الأمن في سيجو. وكان هدف القائد الفرنسي الأساسي هو غزو مدينة جنى ذلك المركز التجاري الهام على طرق القوافل، وعلى أعالي النيجر[1].

وقاد أرشينار جيشه ومعه أجيبو الذي أعلن الولاء للفرنسيين على أمل أن يخلف الشيخ أحمدو في حكم الإمبراطورية، واتجه إلى سيجو في 22 مارس 1893، ووصل إلى مدينة سان (San) في السابع من أبريل. وقام القائد الفرنسي بإرسال وكلاء سريين إلى مختلف أجزاء ماسينا لكتابة تقارير عن أحوال ماسينا، وعرف أرشينار أن الاضطرابات في المنطقة قد

عرقلت التجارة الفرنسية، وأنه لا بد من إعلان الحرب ضد التوكولور.

وأحدثت دعاية أرشينار رد فعل عنيف حيث إن القرى ما بين سان وجنى خضعت للفرنسيين في 9 أبريل 1893، وهجرت جماعات كثيرة جيش الشيخ أحمدو، وبالتالي لم يكن صعبا أن تهزم قوات أرشينار بقية قوات الشيخ في جنى، ورغم أن أرشينار كان يأمل أن تفتح المدينة أبوابها إلا أن أهلها رفضوا ذلك وظلوا على ولائهم للشيخ، وضرب أرشينار المدينة لمدة يوم كامل، لكنها صمدت وقاومت حاميتها العسكرية، وقتلت من الفرنسيين ما لا يقل عن أربعة عشر قتيلا، وحوالي سبعة وخمسين جريحا بينما فقدت هذه المدينة الباسلة 500 قتيل وجريح فضلوا الشهادة في سبيل الله على تسليم مدينتهم لقوات المشركين. وكان سقوط هذه المدينة في أيدي الفرنسيين يعني فعلا سقوط إمبراطورية الشيخ أحمدو، حيث كان لسقوطها آثار معنوية سيئة على سكان ماسينا الذين انضم عدد منهم إلى جانب قوات أرشينار وأجيبو اللذين وصلا فعلا إلى مدينة موبتي (Mopti) في 17 أبريل ليجدا أن الشيخ أحمدو قد ترك حصنه في المدينة، وتقدم أجيبو على أنه الرئيس الجديد للإمبراطورية ورضخ الناس له.

وكان جيش الشيخ أحمدو قد فقد عددا كبيرا من قياداته خصوصا بعد أن هجره عدد من الصوفيين، ومن أشهرهم محمد بافي، وسيبا (Siba)، ودندي (Dendi)، وموسى، وماكوني (Makoni)، وفى الوقت نفسه طلب القائد الفرنسي أرشينار أسلحة جديدة وإمدادات عسكرية لكي يكمل عملية القضاء على إمبراطورية التوكولور. ولما وصلت الإمدادات الجديدة اتجه بجيشه إلى مقر الشيخ أحمدو في عاصمته الجديدة في بانديا جارا (Bandiagara)، وكان الشيخ أحمدو قد عزم على الصمود والمقاومة حتى النهاية أسوة بكل زعماء الجهاد الإسلامي في غرب أفريقيا، وبالفعل أرسل قواته لمواجهة الفرنسيين على طول خط المواجهة، وحصّن الشيخ مواقع دفاعه بكل دقة وحذر، لكن كانت تنقصه الأسلحة الحديثة التي تساعده على مواجهة الأوروبيين. فمن أين يحصل على السلاح والعدو يتربص به في كل مكان، ويغلق عليه كل السبل؟ في الحقيقة هذا موقف صعب على قائد جهاد مسلم يريد الدفاع عن دينه ووطنه أمام غزو أوروبي يهدف إلى احتلال ديار المسلمين.

ورغم سقوط عدد كبير من المدن في الإمبراطورية تحت قبضة السيطرة الفرنسية، ورغم تخلى جنوده عن مواصلة النضال معه، ورغم نفاد الأسلحة والذخيرة وعجزه عن تعويضها إلا أن الشيخ أحمدو ظل صامدا حتى النهاية، ولم يستسلم بسهولة أمام هذا العدو الفرنسي. ففي 28 أبريل 1893 حدثت مواجهة بين المسلمين والفرنسيين، واستطاع الفرنسيون بفضل التفوق الحربي حسم المعركة لصالحهم، ودخول مدينة باندياجارا عاصمة الشيخ أحمدو.

لكن الشيخ شق طريقه إلى منطقة النيجر حيث وجد الملجأ الأخير في دولة الفولاني وسوكوتو. ومات هناك في سكون عام 1895.

وفى 29 أبريل دخل أرشينار وبصحبته أجيبو إلى مدينة باندياجارا ورضخ الناس له. وفى 3 مايو عقد أرشينار وأجيبو اجتماعا رسميا مع شيوخ ورؤساء التوكولور والفولاني والهوصا، وأعلن هؤلاء الولاء، وتم تنصيب أجيبو حاكما جديدا لماسينا، واقتنع الناس أن التغير الذي حدث هو وضع أحد أبناء الحاج عمر بدلا من الآخر، لكنهم أدركوا أن إمبراطورية التوكولور قد سقطت بالفعل، وأن أجيبو لم يكن حاكما توكولوريا بل كان عميلا فرنسيا. وهكذا خضعت ماسينا للحكم الفرنسي وانتهت الدولة التيجانية بعد صراع طويل مع الاستعمار الفرنسي[1].

كان جهاد الحاج عمر وأبنائه مثالا من الشجاعة والإقدام. وكان الإصرار على المحافظة على إمبراطورية إسلامية ناشئة في فترة كان التكالب الأوروبي على القارة قد اتخذ شكلا عسكريا، وجعل الحاج عمر يخوض المعارك في جبهتين: إحداهما داخلية مفككة ومتصارعة، والأخرى خارجية منظمة وعلى أهبة الاستعداد لخوض المعارك للاستيلاء على أراضي المسلمين، لذا كان الجهاد صعبا والمقاومة عنيفة.

كان على الحاج عمر أن يعمل بشكل مستمر على استتباب الجبهة الداخلية، وأن يواصل الجهاد للقضاء على الوثنيين، وفى الوقت نفسه مقاومة أطماع الفرنسيين. ومن هنا طال أمد النضال واستمر جهاد الحاج عمر وابنه أحمدو مدة قاربت نصف قرن من الزمان أرهق فيها المسلمون الفرنسيين الذين اضطروا إلى تغيير القيادة أكثر من مرة، وتحملت الميزانية الفرنسية نفقات كثيرة، وتكبدت القوات الفرنسية أعدادا كبيرة من القتلى والجرحى. لكن رغم كل هذا فلقد فعل التسليح الأوروبي الحديث دوره في

هذه اللقاءات، وحسم الموقف لصالح الفرنسيين إلى حين حتى يستعد المسلمون لجولة جديدة من النضال خصوصا وأن مبادئ العقيدة كانت قد ترسخت في القلوب، ولم تستطع قوى البغي والقهر والعدوان أن تنال منها، وهذه من أعظم ثمار جهاد الحاج عمر التكروري الذي استشهد في المعارك العسكرية وهو يدافع عن دين الإسلام وحضارته.

وإذا كان الجهاد في سبيل الله قد واجه المسيحيين في غرب أفريقيا وانتهى اللقاء لصالح قوى المسيحيين إلا أن الطريقة التيجانية ظلت كامنة في النفوس، عالقة في القلوب، بل ازداد المسلمون تمسكا بها، وحافظوا على تقاليدها في وجه التيارات المسيحية والوثنية، وظلت هذه الروح الثورية الدينية تمارس نشاطها وتحافظ على العقيدة الإسلامية حتى هبت كل شعوب المنطقة في وجه الاستعمار الفرنسي، وأجبرته على أن يحمل عصاه ويرحل عن أرض القارة الأفريقية التي عادت للإسلام والمسلمين.

وامتاز جهاد الحاج عمر بأنه وقع خارج وطنه الأصلي في فوتاتورو، ورغم أن التوكولور قد أيدوه في هذا الجهاد، وساعدوه على تحقيق النجاح لحركته الإصلاحية لإعادة الدين الإسلامي إلى نقائه وبساطته الأولى إلا أن هذه الحركة لم تعمر طويلا لأن هذه المنطقة كانت تموج بالصراعات الداخلية، والاضطرابات المحلية. وزاد الطين بلة قدوم قوى الاستعمار بشكله السافر فكان هذا مما ساعد على تعقيد جهاد الحاج عمر في مناطق غير وطنه الأصلي لدرجة أن بعض المؤرخين اعتبروا جهاده بمثابة استعمار توكولورى لمنطقة ماسينا، وبالتالي كانت مقاومة الأهالي لهذا الجهاد لا تقل شراسة عن الهجوم الفرنسي على مواقعه. كل هذا أضعف من فاعلية جهاد الحاج عمر، وكان مضطرا إلى الحرب في أكثر من جبهة، وأن يوزع قواته على أكثر من موقع، وكان مشتت البال، مضطرب التفكير، فمرة يهادن الفرنسيين حتى ينتهي من القضاء على الثائرين، ومرة أخرى يجهز الجيوش ويعيد القوة لغزو مناطق جديدة، وتارة أخرى يعود إلى مهاجمة الفرنسيين الذين كانوا يخططون للتوسع التدريجي على حساب أملاكه. وكل هذا يظهر عظمة هذا النضال، وعمق هذا الجهاد، ويبرز الدور الكبير الذي لعبه الحاج عمر في جهاده ضد أعداء الإسلام من الوثنيين ومن الصليبيين (١).

لم يكن هدف الحاج عمر عندما أتجه نحو وطنه الأصلي في فوتاتورو غزو هذه المنطقة، بل كان يسعى للحصول على تأييد العلماء ورجال الدين هناك من أجل إصلاح العقيدة، وقد أيده بالفعل عدد كبير من التوكولور ومن الأجناس الأخرى في المنطقة. ولم يكن الحاج عمر يهدف إلى التوسع أو الاستعمار في منطقة عرفت الإسلام منذ قرون خلت.

واتسمت حركة جهاد الحاج عمر بالحماس الديني، وظهر هذا واضحا في حروبه مع الفرنسيين في منطقة باكل في عام 1855، وفي مهاجمة قواته المركز الفرنسي هناك واختطاف قائده، وأيضا عندما هاجمت قواته الحصن الفرنسي في مادينا عام 1857. لكنه أجبر على الانسحاب من هناك بسبب ما أصابه من خسائر في الأرواح والمعدات[2].

ولقد حاربت قوات الحاج عمر الفرنسيين في مادينا حتى بلغ عدد قتلى العدو حوالي ستة عشر قتيلا وثلاثة وستين جريحا. وفي معركة جيومو (Guemou) تكبّد الفرنسيون حوالي تسعة وثلاثين قتيلا، وسبعة وتسعين جريحا، وكانت هذه من الأسباب التي أجبرت الفرنسيين على التفاوض مع الحاج عمر والتعاون معه[3].

لقد كان الحاج عمر زعيما إسلاميا مخلصا ناضل من أجل نشر الطريقة التيجانية في المنطقة التي دانت لسيطرته ما بين نهر السنغال ونهر النيجر. وكان الحاج مشغولا في جبهات ثلاث هي: الحرب ضد الوثنيين في الغرب، والحرب ضد المسلمين في الشرق، والحرب ضد الاستعمار الفرنسي [1]. كان الحاج عمر مغامرا من نوع جديد، ورجلا صلبا لا يلين، لدية آمال عراض لبناء إمبراطورية تتخذ من الشريعة الإسلامية أساسا لها ومنهاجا، وما كان يدرى أن الطريق مليء بالأشواك، وأن المنطقة التي اختارها لبناء دولته تكتظ بالمشكلات الداخلية والصراع الأوروبي عليها. فناضل وكافح. وفتح جبهة هنا وجبهة هناك، واستخدم أسلوبي الدبلوماسية والحرب. كان يهادن في جبهة ليتفرغ للأخرى، وساعده كل هذا على نشر الطريقة التيجانية التي تعمقت في نفوس الناس وصارت تضارع الطرق الصوفية الأخرى. ولو فهم المسلمون ما يرمي إليه هذا الشيخ المجاهد، والجهود التي يبذلها لبناء دولة إسلامية، ولو وقفوا بجانبه في صراعه مع الأوروبيين لتغير الوضع تماما، لكن للأسف الشديد عاق الحاج عمر من المسلمين والوثنيين الذين

تكاتفوا ضده، واعتبروه غازيا، وعقدوا حلفا ضده وهو في أمسّ الحاجة لجهودهم، وحاصروه في حمد الله وهو يناضل من أجل الوقوف في وجه الفرنسيين. وسقط هذا الزعيم شهيدا برصاص المسلمين الذين تتبعوه وحاصروه حتى قضوا على جهوده، واستشهد الحاج عمر وهو في روعة انتصاراته، وفي قمة صراعه مع الفرنسيين الذين عانوا كثيرا على يديه[2].

ورغم سقوط إمبراطورية التوكولور إلا أن أتباع الحاج عمر قد اكتسبوا شهرة القيادة الإسلامية في السودان الغربي، وانتشرت التيجانية بعد ذلك، وقاومت التبشير المسيحي الذي اجتاح إمبراطورية التوكولور في أعقاب السيطرة الأوروبية، ورغم سقوط الإمبراطورية سياسيا إلا أنها استمرت تمارس حياتها الدينية، وحافظت على تراث الإسلام وحضارته أمام موجات الغزو والتوسع الأوروبي والتبشير المسيحي[1].